

أدبنا .. مترجماً إلى الإسبانية ..

يزهو بعض أدبائنا بأن إبداعه ترجم إلى لغات متعددة غالباً ماتكون الأوروبية ، ولهم بعض حق في هذا الزهو ، فليس أحب إلى الإنسان - مبدعاً - أن يرى ثمار قلمه تنطق باللسنة متباينة ، والفتنة بالولد وبالفن قديمة «هو بابنه وبشعره مفتون» على رأى الشاعر القديم .

وبيننا وبين الإسبان أصرة قديمة ، وإن كانت معرفتهم بنا حديثاً ، قد تأخرت عن نظائريهم من أبناء الأمم الأخرى . لكن هذه الأصرة - بعد زوال غاشية التعصب - ترجمت عن ذاتها فيما يتصل بالأندلس الإسلامية لغة وفكراً وحضارة ، باعتبار ذلك التراث جزءاً من تاريخهم هم ، وإن كان ذووه يتحدثون العربية ويدنون بالإسلام ، إلا أنهم إسبان في النهاية كما يرون .

لكن الأدب العربى الحديث له موقف خاص ، فمدرسة الاستشراق الإسبانية تهتم فى المقام الأول بالأندلس ، واهتمامها بالأدب العربى الحديث يجئ على الهامش ، ومن أعلامها أسين بلاثيوس ، وبالنشيا ، وريبيرا ، وغريته غومث ، وجرانخا وآخرون ، وغومث خاصة - قد اهتم «بأيام» طه حسين ، ربما مجاملة لأستاذه ، وأذكر أننى - فى بداية البعثة - بحثت فى كبريات المكتبات عن ترجمته للأيام ، فلم أظفر بمن يعرفها !!

ثمة مدرسة تولى الأدب العربى الحديث اهتماماً ملحوظاً ، وربما كان «بدور مارتينث» أطول أصحابها قامَةً ، وللرجل مشاركات فى المؤتمرات الأدبية والفكرية فى بلاد العرب ، وله تلاميذ يحذون حذوه ، لكن البارزين منهم محدودون جداً ، واهتماماتهم - فى المقام الأول - وفى الغالب - تنصرف إلى النحلة المذهبية ، فكرية وفنية - أو إلى المجاملات ، وإسهاماتهم تتجه إلى التاريخ والتعريف ، ولا تتجه - غالباً - إلى النقد والتذوق والتحليل ؛ لأن الوقوف على الجمال الأدبى ربما لايتيسر إلا لأبناء اللغة الأم ؛ خاصة لغة كالعربية ، وجهودهم مشكورة فيما

يتصل بالجانب الأول ، وبعضهم - كأغلب الإسبان - فيهم كسل لذيد وحب للحياة ، ورثوه عن الأندلسيين ، يعتمدون في ترجماتهم على لغة وسيطة Segun-damano ، ويقعون في الأخطاء التي يقع فيها المترجم الأصلي ، ووقع في هذا كبارهم ، وبعض قصص نجيب محفوظ ترجمها الإسباني عن الفرنسي ، حتى بعض كتب التراث القديم العربى .

وينبغى أن تكون حقيقة هذه الترجمات مفهومة ، فغالبًا ما يحدث فى الإسبانية يحدث فى غيرها ، ودعك من فوز نجيب محفوظ بنوبل ، وإشاعة إسمه فى وسائل الإعلام ، فالقارئ العادى سوف تغيم فكرته بعد قليل ، لأن أدبنا محصور فى نطاق الاستشراق ، وهو ضيق جدًا ، والصبية الصغار من المستشرقين ، وطلاب قسم اللغة العربية يجربون معرفتهم باللغة التى لاتتجاوز دراستها أربع سنوات ، ترقع أحيانًا بدورات صيفية ، لكن البيئة كلها أعجمية ، ومن ثم نجى ترجماتهم «تجارب» و «تمارين» تنكئ على المعجمات ، وتوجه إلى الشعر الحر غالبًا، ورائده التسهيل ، أو القصص القصيرة ، أو المقالات الخفيفة كمقالات جبران وأمين الريحانى وإخوان هذا الطراز ، وتطبع من هذه الترجمات أعداد محددة جدًا توزع هدايا ، ويقرأها الصبية أنفسهم ، ويباع مابقى - إذا بيع - مرقمًا ، ولايتجاوز العدد خمسمائة نسخة ، لاتتعدى نطاق الأقبية الرطبة : أقبية الاستشراق !!

أما القارئ العادى وراغب الثقافة ، فلايكاد يقرأ شيئًا ، بخلاف الحادث عندنا ، فالقارئ يعرف - مطالعًا - بلزак ، وتشيعخوف ، وراسين ، وخوان رامون ، وغيرهم من كتاب الغرب والشرق .

ولذلك نضحك فى أكمامنا ، حين نجد نفرًا بيننا ينتفخ بأن كتبه ترجمت إلى لغة كذا وكذا ، وهى فتنة بالقلم والولد ، لاتتجاوز حدود الطموح والأمل ، وكلاهما خيال ، وينبغى أن توضع فى مدارها الصحيح .

«أيام» طه حسين بالإسبانية

عبدًا أن يعثر راغب في شراء كتاب «الأيام» لطه حسين مترجمًا إلى الإسبانية ، وربما غيره من الكتاب العرب ، لا لضالة أقدارهم ، ولكن لأن أدبنا - عموماً - ليس معروفًا إلا لدى فئة قليلة ، صوته خافت هم فئة المستشرقين ، ورغم أن رجلاً كطه حسين يحظى لديهم بقبول ربما لا يجده غيره سوى نجيب محفوظ أخيراً ، فإن صوته لا يصل إلى أسماع القارئ العادي ، الذى ينظر القارئ العربى هنا ، ويعرف بلزك وديكنز ، وتشيوخ وملتون وثيرفانتس وبقية هذا الفريق ؛ لأن مترجمى هؤلاء إلى العربية ليسوا كالمستشرقين وأقبيتهم الرطبة التى لا تسلل إليها الضوء إلا لوأذا ، وطه حسين بالنسبة لغيره محدود لديهم ، لعدم مصادمته أذواقهم ، ولصدوره أحياناً عن بعض هذا الذوق .

ربما يكون طه حسين معروفًا أكثر لدى الاستشراق الفرنسى ، وربما يكون هو الذى «صدره» إلى بقية الاستشراق فى البلاد الأخرى ، ومنها إسبانيا التى كان مستشرقوها حتى عهد قريب لا يباشرون الأدب العربى الحديث إلا لماماً .

يطفو إلى الذهن مباشرة غرثية غومث عميد المستشرقين الإسبان ، الذى تتلمذ لطه حسين فى القاهرة إبان بعثته إليها ، وحاول التلميذ أن يرد بعض الجميل لأستاذه فترجم «الأيام» بعزائه سنة ١٩٥٤ إلى الإسبانية ، ونشره فى مطبعة إقليمية فى بلنسية ، وصدره بمقدمة جيدة ، أبان فيها بواعثه التى حصرها فى «صداقته للمؤلف ، تلمذة له فى البداية ، وصديقاً له فيما بعد ، منذ أكثر من ربع قرن ، ولحبه للكتاب الذى يثير فيه ذكريات جميلة ، ولأهمية الكتاب للقارئ الإشباني» ، كما أوضح قيمة «الأيام» بالنسبة لصاحبه وثيقة نفسية واجتماعية ، وبالنسبة لمصر التى تشهد نهضة حديثة ، مبدئياً إعجابه بصوت طه حسين الطفل الكفيف الفلاح ، والحساس الذى صور الأزهر ، والقرية المصرية والمتمرد على التقاليد والأدب المرعية ، الذى صار وزيراً ورائداً مجدداً ، ومترجمًا عن الفرنسية ، وأثنى على لغة طه حسين الحارة والسهلة الحاملة لعبق التراث القديم والتى تذكرك بأصدقاء الكلاسيكية ، تقودها نفس متوثبة شديدة المضاء ، ولكنها

لغة رجل «يملى» لا يكتب ، ولذلك جاءت رسماً بمنقش النحات ، لغة ملموسة ، مسموعة ، مشمومة ، ونحن مكفوفون ، مثل المؤلف - كما يقول المترجم - عبر الأيام ، وكان غوث يلمح إلى مقولة المازنى عن طه حسين فى «قبض الريح» وطبيعة الإملاء عنده ، وإن كان لم يشر ونظن أنه قرأها ، ويشير غوث بذلك إلى «المحلية المغرقة» فى الأيام ولعله يريد أن ينقد «الأيام» فى ذكاء شديد ، لأنه يقول : عبثاً أن نعرف «كتاب سيدنا وساقية الإبراهيمية ، وخبز الأزهر ، وحارة اللوطاويط» إلى آخر هذه الأشياء .

فى سنة ١٩٧٣ نشر المعهد المصرى بمديرى ترجمة الجزء الثالث من الأيام ، وقامت بالترجمة كارمن رويث ، وهى مجتهدة إلا أن أخطاءها صعبة ، ويدرك المرء أى فرق بين الجليلين : الأساتذة والتلاميذ ، كتبت مقدمة موجزة مشيرة إلى ترجمة ماريانا نلليو لبعض الجزء الثالث إلى الإيطالية سنة ١٩٦٢ ، وترى كارمن فى الكتاب وثيقة مهمة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، ووثيقة أيضاً لمشاعر المؤلف ، وأبناء جيله ، والإسبان عموماً فيهم كسل لذيد وحب للحياة مثل أسلافهم الأندلسيين ، يترجمون عن ترجمات وسيطة لا لعدم المعرفة بالعربية ، بل للكسل ، ولذلك يقعون فى الأخطاء التى يقع فيها المترجم الأول ، ومع أن بدرو مارتينث - وهو أستاذ جليل - راجع الترجمة ، إلا أنه يبدو أنه نظر فيها متعجباً ، وإلا لسلم الكتاب من أخطاء ترجمة الشعر لطف حسين ولغيره ؛ إذ جاء قوله : يقول فى تسيحه ابن الأمة ما الأمة ، بابن الأمة ، بتشديد الميم وضم الهمزة ، مع أنها تعنى القينة ، و «الهادى» وهمت أنها نطق عامى «لهذا» والمعنى بها الرسول ، وجاء قول أبى نواس ، وما أنا بالمشغوف ضربة لازب . . «ضربة تهوى على العاشق» إلى آخر هذه الأشياء التى لانود استقصاءها هنا . ولم يكن حظ هذا الجزء بأسعد من صاحبيه ، فهو حبيس الأقيية الرطبة ، ويقرأه تلاميذ قسم اللغة العربية هناك ، وهم فئة قليلة ، والاستشراق لاتأثير له عموماً فى الدوائر الثقافية العامة ، وأدباؤنا الذين تنتفخ أوداجهم لأنهم ترجموا إلى لغات الأرض ، عليهم أن يتظامنوا كثيراً ، فلا يعرفهم إلا الذى يجربون معرفتهم بالعربية ، ويحيون فترة التلمذة المحدودة ، وخير لطف حسين وأدبائنا عموماً أن يعرفهم قارئ العربية من أبنائها .

الحكيم فى الفكر الإسبانى

حظى توفيق الحكيم بتقدير الاستشراق الإسبانى ، وإن لم يحظ بالشهرة التى يستأهلها لدى القارئ العادى مثله فى ذلك مثل أدبائنا العرب ، باستثناء نجيب محفوظ أخيراً بعد نوبل ، لأن الاستشراق الإسبانى - مثل أى استشراق آخر - يتحرك فى دائرة محصورة ، لاتكاد تتجاوز أهله والمهتمين به إلا فى حالات نادرة ، ولايعنى هذا ضالة قيمة أدبائنا .

وتوفيق الحكيم قيمة باذخة فى أدبنا الحديث ورائد فن اقترن باسمه ، وأبدع فيه كمًّا وكيفًا ولايمكن أن يغفل الإسبان رجلاً له مثل إسهام الحكيم ، ولو أتيح له أن يُقرأ على نطاق واسع أو يمثل بعض إبداعه فى المسارح الأوروبية أسوة بما نصنعه نحن مع الأدب الأوروبى ، لكان له ولأدبنا شأن آخر .

والمستشرقون الإسبان حتى عهد قريب كانوا يحصرون اهتماماتهم بترجمة الأدب الأندلسى ، فهم ورثة هذا التراث ولهم فيه نصيب مثلنا .

وقد أدرك بدرو مارتينث آسفًا أن الحكيم لايعرفه القارئ الإسبانى معرفة كافية ، وكأنه يشير إلى استحقاق الكاتب المصرى إلى دراسات معمقة أو رسائل جامعية ، وينبغى أن ندرك أن ولوج المستشرقين إلى الأدب المصرى - مع عرفانهم أهميته - عسير ، فبعضهم يفرد مؤلفات للأدب العربى فى أقاليم أخرى ؛ لأن فى وسعهم الإحاطة بهذا الأدب بخلاف الأدب فى مصر ، الذى يقتضى عكوفًا وتمويلًا ، ربما لايتحان بالقدر الكافى .

احتشد بدرو مارتينث ، وكان مديراً للمركز الإسبانى الثقافى بمصر سنوات ، ورأس جامعة مدريد المستقلة بضع سنوات كذلك ، وله معرفة عميقة بالأدب فى مصر احتشد ومعه طائفة من تلاميذه لمشروعات كبيرة ترجمت من طه حسين ونجيب محفوظ والحكيم ويحيى حقى ولطائفة من الشعراء ، وأصبح علماً لاتجاه فى الاستشراق الإسبانى يقصر جهوده على الأدب والفكر العربى الحديث .

ترجم «شهر زاد» للحكيم ونشرها فى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، وقدم لها بدراسة عرفت بالمؤلف وباتجاهه الفنى وارتآها «قصيدة درامية» ولايعنى أنها شعر ، بل يرى فيها روعة فى الأداء اللغوى تقارب الشعر ، وهو على حق كبير ؛ لأن حوارات الحكيم من أرقى ما قرأنا من حوارات فى الأدب العربى والأوروبى ، ولغته فيها توتر الشعر ووجهه الخلاق وكثافته الشفافة .

وثمة مقال نشر منذ بضع سنوات «لخوليو سامسو» ، وهو أستاذ بجامعة برشلونة ، ومن مدرسة تهتم بالعلوم فى الأندلس تاريخاً وحضارة ولها إسهامات واضحة خاصة لدى صاحبنا ولدى أستاذه بيرنيت مترجم القرآن الكريم ، وعنوان هذا المقال «تأثيرات إسبانية محتملة من أونامونو وخائنتو جراو ، فى بيجماليون لتوفيق الحكيم» .

ومسألة التأثير الإشبانى فى الحكيم جديدة ، حيث يقف الباحث المقارن ، لدى التأثير الفرنسى أو الإنجليزى ولايكاد يمد بصره خارج هذين الأدبين ، وينبغى أن يكون واضحاً منذ البداية أن التأثير لايعنى النقل أو السرقة ؛ لأننا نولد وفينا كفاءتنا الخاصة القابلة للبناء عليها .

عرض سامسو إلى آراء الباحثين من العرب فى تأثر الحكيم بيرنارد شو ، واعتمد رأى المستشرق الأرجنتينى «أوسبالدو ماتشادو» فى نفى الصلة بين الحكيم وشو ، وأن الصلة جاءت فقط من صدور الكاتبيين عن الأسطورة القديمة ، وأنها غير غريبة عن الأدب العربى .

يرى سامسو أن «الحلم» المبدع للفن لدى الحكيم فى مسرحيته هذه ، أو فى أعمال أخرى سابقة له مثل «بين الحلم والحقيقة» فى عهد الشيطان ، أو فى «عصفور من الشرق» إنما هو موضوع مطروق فى الأدب الأوروبى . . وقد عاش الحكيم فى باريس من ١٩٢٥-١٩٢٧ ، وحدث خلال ذلك أن نشرت عام ١٩٢٥ ترجمة ست شخصيات تبحث عن مؤلف للويجى بيراندللو ، وفى سنة ١٩٢٦ نشرت ترجمة «الضباب» لميجيل دى أونامونو ، وعرضت قبل قدوم الحكيم باريس فى ١٤ فبراير ١٩٢٣ مسرحية «سيد بيجماليون» لخائنتو جراو ، وهذه الأعمال تعالج الموضوع ذاته «مسألة الحلم والخلق الفنى» ويحتمل أن يكون الحكيم هذا قد

عرفها جميعاً ! وقرأ عنها .

ومسألة خلود العمل الفنى أكثر من الفنان المبدع مسألة تعرض لها هؤلاء الكتاب جميعاً على اختلاف فى تناول وطريقة العرض ، وكذلك مسألة استقلال الشخصيات الفنية عن أصحابها .

أما مسألة زيارات الشخصيات للمؤلف ، فقد تناولها أونامونو والحكيم وبيرانددلو ، وأن عمل الحكيم - فى رأى سامسو - يحتوى على مجموعة موضوعات مشتركة من هؤلاء الكتاب ، وقد كانت كلها مترجمة إلى الفرنسية ، وهنا يبعد الحكيم عن شو بعداً كبيراً ، إضافة إلى أن الكاتب المصرى قد عالج هذه الزيارات فى أعمال أخرى مثل «القصر المسحور» ، ومع الأميرة الجذباء ، وشهرزاد مع شهريار العصر فى مجموعة «سلطان الظلام» .

وينهى الكاتب رأيه بقوله : نجد الحكيم يمزج موضوعات كلاسيكية أو مأخوذة من أعماله نفسها بموضوعات أدبية أوروبية ، ويقدم أحياناً إشارات للحاضر السياسى ، لإخراج عمل أصيل فى أسلوب شخصى ، إن الأدب الأوروبى فى نتاج الحكيم ومعظم الكتاب العرب المعاصرين يتميز بطابع الإثراء فقط ، وهو يختلف فى ذلك عن النقل ، الذى يمكن أن نكتشفه بسهولة فى الفترة السابقة فى التأثير الغربى ، ولنذكر فى ذلك مثلاً مارون نقاش» .

ولعل هذه العبارة تؤيد مانقوله من أن الأدب الإنسانى ملك للناس جميعاً ، وأن الكاتب الأصيل فى أية أمة هو من يفيد منه ، ويخرج لنا أدباً أصيلاً ينسب إليه وحده ، وأن الحكيم بهذا المقياس المقارنى يحظى بأوفر الأنصبة من الأصالة والتفرد ، وأن قيمته أولاً أن يظل مقروءاً فى لغته الأم قبل أى لغة أخرى .

توفيق الحكيم بالإسبانية

حسنًا أن يترجم توفيق الحكيم مترجم مصرى أو مترجمة مصرية إلى اللغة الإسبانية ، حيث يعى المصرى - عادة - أسرار العربية كما لا يعرفها الغرباء عنها ، الذى أخذوها اكتسابًا ، ولذا كانت حفاوتنا بهذا العمل الجيد الذى اضطلعت به الدكتورة نجوى محرز ، رئيسة قسم اللغة الإسبانية وآدابها بجامعة عين شمس ، مسهمة بذلك فى الدور الذى سبقنا به المستشرقون الإسبان فى ترجمة آدبنا إلى لغتهم ، وإن كان الاهتمام بالأدب العربى الحديث جاء متأخرًا عن اهتمامهم بالأدب الأندلسى ، الذى هم شركاء لنا فيه ، وإن كانوا يحاولون الآن تعويض ما فاتهم بترجمة الأدب العربى الحديث . أول ترجمة للحكيم إلى الإسبانية . فيما نعلم - قام بها إميليو غرثيه غومث ؛ حيث قدم «يوميات نائب فى الأرياف» ولم تصب ذبوعًا رغم أهميتها فى ذاتها ، وأهمية المترجم لدى أبناء جلدته ، ثم اهتم بالحكيم تلميذ غومث ف. كورينطى اللغوى المعجمى ومترجم المعلقات إلى الإسبانية ، فترجم «عودة الروح» ، أعقبته ترجمة بدور مارتينث مونتاث - مدير جامعة مدريد الأوتونوما الأسبق - لمسرحية «شهر زاد» ، ترجمة جيدة ، مشفوعة بدراسة ، وكل هذه الترجمات محصورة أو تكاد فى دوائر الاستشراق .

ثم جاءت ترجمة نجوى محرز لأربعة أعمال للحكيم ، هى : نهر الجنون - وبين الحرب والسلام - والشیطان فى خطر . ونحو حياة أفضل ، مشفوعة بمقدمة عن الحكيم وأدبه ، وخصائصه الفنية فى صفحات قلائل .

وقد عرضت المترجمة فى أسطر قليلة لبعض الصعوبات التى واجهتها فى الترجمة واستطاعت التغلب عليها ؛ لأنها تتعلق فحسب بالضمائر اللغوية مذكرة ومؤنثة فى مسألة «الحرب والسلام» .

وترجمة المسرحيات - وإن بدت سهلة يسيرة - حيث تقوم على الحوار ذى الجمل القصيرة غالبًا - عمل غير يسير ، لأن أسلوب الحكيم خاصة من أرقى

مانعهد فى أساليب الحوار ، يلعب ذكاؤه وبراعته اللغوية دوراً غير محدود فى المراد ، مثله مثل كبار كتاب المسرح فى اللغات الأخرى ، وهنا ممكن الصعوبة ، حيث تقوم الإيماءات والنقاط ، وعلامات الكتابة والترقيم بدور لا يقل عن الكلام الملفوظ ، كما يقوم «المونولوج» أو تصوير حالة المحاور بين الأقواس بدور شديد الخطورة ، وعلى المترجم فى تلك الحالة أن يقيد هذه الخواطر لأنها لم تحيئ عبثاً ، وأن يتزيا لكل حالة إيماء أو تصريحاً بالزى الملائم ، وكانت نجوى محرز - وهى مثقفة واعية - وذات قدرة بارعة فى الإسبانية والفرنسية - كفاء هذه الصعوبات ، تحركت خلالها بمهارة واقتدار فى الأغلب الأعم ، إلا فيما يعسر فيه الإلتقاء بين اللغتين العربية والإسبانية ، لكنها فى أحيان قلائل كانت تغض الطرف عن الجمل ، التى تحيئ بين قوسين وهى تصور حالة المحاور راضياً أو مؤمئاً ، أو ساخطاً أو متعجباً ، وكأنها تكتفى بما تحمل عبارته من هذه الحالات ، وقد رأينا عدم الاكتفاء بما اكتفت به ، معتقدين أن أمانة النقل تقتضى ترجمتها ، وربما زادت حسنًا ، غير أن هذه حالات معدودة جداً ، وثمة جمل أخرى نرى أنها اقتربت من الأصل ، واستغنت عن الظلال ، وترجمة الظلال أمر ضرورى فى الترجمة الأدبية .

المجموعة التى نقلت عنها نجوى محرز تحمل عنوان «سر المنتحرة» وهى مسرحية من أربعة فصول ، أغفلتها الترجمة ، مكتفية بالأربع المذكورة ، وكلها من فصل واحد ، ولعلها ارتأت أن تقدم مسرحية الفصل الواحد إلى القارئ الإسبانى بعد أن عرفه فى المسرحيات ذوات الفصول المتعددة أو الرواية الطويلة ، ولعلها تعاود ترجمة «سر المنتحرة» لتكمل المجموعة ، وتكمل الطريق فى ترجمة غير الحكيم من الأدباء المصريين .

نشرت هذه الترجمة فى مصر ، ولقارئ اللغة الإسبانية ، فلعل دار النشر تقدم هذه الترجمة مشكورة إلى الدور الإسبانية فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية لئلا ندور مع الإسبان فى حلقات الاستشراق . . وهى حلقات محدودة هنا أو هناك .

الدراسات الأندلسية فى مصر

الدراسات الأندلسية الآن فى مصر مظلومة ، وأصحابها يحفرون فى الصخر بأظافرهم ، لعدم اكتمال أدوات البحث والنظر لدى أغلبهم الآن ؛ لأن الحقل لا يزال بكرا ، وطارقوه المؤهلون له محدودون ، مع اشتداد أهميته فى تلك الظروف المتعاقبة التى نعيشها حاضراً .

أولى أدوات البحث الأندلسى أدباً وفكراً ، وتاريخاً ، وحضارة أن تعرف تاريخ هذا البلد معرفة وثيقة ، وأن نفظن إلى أسرار لغتنا ، وبها كتب تراث أندلسى هائل ، وهذه المعرفة وتلك الفطنة يمكن أن تخرج باحثاً أندلسياً تقليدياً ، يتحرك فى مجال التراث العربى ، دون أن يطمح ببصره إلى مايكتبه الإسبان عن الأندلس منصفين وغير منصفين ، فنحن فى حاجة إليه ، ولايتأتى ذلك دون معرفة اللغة الإسبانية لنطالع ثمرات قرائح مستشرقين من أمثال خوليان ريبيرا ، وأنخل جونثالث بالنثيا ، وميجيل أسين بالاثيوس ، وغرثيه غومث ، وجرانخا ، وبدور مارتينث ، وكورينطى وإخوان هذا الطراز ، ولكل واحد منهم باعه فى الأندلسيات فكراً وتاريخاً وحضارة ، قد فظن جيل سابق لقيمة الدراسات الأندلسية فاهتموا بها ، واحتشدوا بأدوات النظر لمعرفتهم بلغات أخرى ، من أمثال الدكتوراة أحمد ضيف وحسين مؤنس ومحمد عبدالله عنان وغيرهم ، ثم كانت مبادرة طه حسين بإنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، وهو وزير آنذاك ، وكان يدرك أن مشروع الدرس الأندلسى لن يتم على الوجه الذى يراه إلا بتكوين جيل ، يقف على تراثه العربى الأصيل ، ويقف على اللغة الإسبانية مبعوثاً إلى بلادها ، وكان لنا جيل من الرواد الأندلسيين فى مصر أمثال الدكتوراة : عبدالعزيز الأهوانى، وأحمد هيكل ، ومحمود مكى ، والطاهر مكى ، وأحمد مختار العبادى وآخرين حملوا عبء الدراسة الأندلسية فكراً وتاريخاً وحضارة ، وتكاد تكون إسهاماتهم على تفاوت - هى أفضل الإسهامات التى قدمت حتى الآن ،

وجاء جيل آخر لا يزال يحمل العبء من أمثال الدكاترة : صلاح فضل ، وعبدالله جمال الدين ، ومحمد عيسى ، وأحمد عبدالعزيز ، ويحاول أن يقدم جهودهم تأليفاً وترجمة .

إن دراسات المستشرقين الإسبان عن الأندلس منطقة محظورة ومخيفة ، إلا لمن يقترب منها بلغتها ، أو على الأقل بلغة أخرى كالفرنسية مثلاً ، ولاتكاد تسد مسد الإسبانية ؛ فنظرية عروض الموشحات والأزجال والخرجات الرومانسية ومصادر التاريخ الموريسكى لن يقف عليه إلا من تمكن من الإسبانية ، مع احترامنا للدارسين المصريين وغيرهم ممن تخصصوا فى الأندلسيات ، ولم تتح لهم فرصة معرفة الإسبانية ، فهؤلاء يعملون بجهد لم تذلل له كل العقبات ، وبعضهم معذور حين يخلط مثلاً بين الموريسكى وبين المسلم عموماً ، أو بين من ينتسب إلى مدينة المرية ، أو ينتسب إلى المرينيين ، ومن لا يدرك الخرجات العجمية التى تختم بها الموشحات ، ومن يمزج بين الرومانى والرومانسى . كان ثمة توازن فى المبعوثين إلى إسبانيا ، يمزج بين دارسى تاريخ الأندلس ، والأدب الأندلسى ، والأدب المقارن ، والفن الأندلسى ، واللغة الإسبانية ، لكن كفة الأندلسيات مالت مؤخراً لحساب دراسات مهمة . . لكنها يمكن أن تتم أفضل فى بلدان أخرى كالطرب وله ثلاث بعثات الآن ، والزراعة ولها أربع ، والهندسة ولها ثلاث ، والفنون ولها خمس ، واللغة الإسبانية ولها ثمان ، أما الأدب الأندلسى فاقصر على بعثة واحدة .

إن الدراسات الأخرى سوى الإسبانية يمكن أن تتجه إلى بلدان أخرى لو شاءت ، لكن كيف ندرس الأندلسيات فى غير الأندلس ، صحيح أن عندنا فى الجامعات المصرية أساتذة كباراً لكن المسألة لا تقتصر على الأستاذ فقط . بل إن معرفة اللغة الإسبانية ضرورية جداً ، ومعايشة أحداث التاريخ الأندلسى بشراً ، ووجوهاً ، وحضارة ، ومدناً مطلوبة كذلك ، وهذا ما يفيد المبعوثون : السلوك والمعرفة ، ولا يمكن ترقيع البعثات بما يتم من بعث بعض الطلاب تسعة أشهر لجمع المادة ، أو أى مسمى آخر فهو نوع من العبث غير المفيد ، إذا كان ذلك ضرورياً فلا تقل المدة عن حولين كاملين لمن أراد أن يحصل شيئاً من المعرفة باللغة وأهلها .

هل تفتن وزارة المعارف ، أقصد وزارة التربية والتعليم ، إلى وظيفة البعثات إلى الأندلس ، وإلى وظيفة المعهد المصرى التى أدركها طه حسين منذ مايناهز نصف القرن، فلا يجهل دارس الأندلسيات تاريخها وفكرها وحضارتها وآدبها مايكتبه إخواننا الإسبان عن أندلسهم ، ولهم منه نصيب كنصيبنا ، ولهم نظرات لم نقف عليها بعد ، سواء اتفقنا معها أم اختلفنا .

الشعر العربي فى إسبانيا وصقلية

بقية المتقدمين من شيوخ الدراسات الأندلسية فى مصر والعالم العربى ومن ذؤابة الرعيل الأول ، الذى فقه تراثه العربى ، ووقف على كتابات المستشرقين الإسبان وغيرهم بلغة غير العربية ، وتلَمَدَ لشيوخ الاستشراق المحترمين فى إسبانيا ، وعرف الحضارة الأندلسية لغة وتاريخًا وبشرًا ، واحتفظ بقوامه الخاص غير ذائب فيما عرف وهو كثير .

وكان على هذا الرعيل أن يؤلف وأن يترجم وأن يحقق ، وكان د. الطاهر مكى - ولا يزال - فى طليعة هذا الرعيل ، فقد حقق بعض التراث الأندلسى ، تحقيق العالم الثبت ، وألف أندلسياته فى الشعر والنقد والتاريخ والحضارة والأدب المقارن وترجم عن الإسبانية روائع ماكتبه أثبات المستشرقين والمبدعين الإسبان وعن الفرنسية أيضًا .

والجميع بين هذه الحقول جمع عسير ، بيد أنه يسير على رجل خدَم الشقافة فخدمته ، ولم تقف جهوده لدى الأندلسيات بل ولج عوالم أخرى فى النقد والأدب القديم ومصادر هذا الأدب والشعر المعاصر والقصة القصيرة ، وهو بهذه الصفة من أغرز أبناء جيله نتاجًا وكأين من أصحاب نتاج غزير خير منهم المقلون . . لكن د. الطاهر مكى جمع بين الغزارة والإتقان .

وهو صاحب أسلوب متفرد ، يجمع بين الجزالة والبساطة وله تعابير يكاد ينفرد بها ولعلها أثارة من اللغة الإسبانية ؛ فتقديم الحال على جملته من خصائص هذا الأسلوب وتسعده قدرة فذة على نخل الكلام ، فتطفر كلماته بين السطور رشيقة متوثبة حتى وهو يترجم . . وإذا استطاع الكاتب هذه الصياغة فى الترجمة ، فاستطاعته فى التأليف أوضح .

وكتاب الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية لمؤلفه الألمانى فون شاك نموذج جيد لوفاء الترجمة بالأمانة والدقة وحسن البيان ، وترجمه الأستاذ مكى عن الإسبانية ، وقد نقله إليها خوان باليرا وهو من ذوى الأساليب والبيان فى لغته ، وترجم قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس شعرًا إسبانيًا رائعًا ، وارتبطت القصيدة

الأندلسية من يومها بقصيدة ذائعة لخورخي مانريكى فى رثاء أبيه ، وتستحق القصيدتان دراسة مقارنة مستوعبة، قدم شك كتابه بتمهيد عن الشعر الجاهلى فى خطوط عامة ، اعتمد عليها - فيما نرى - طائفة من المستشرقين الإسبان ، بعضهم يذكرها وبعضهم يلتزم الصمت ، وقد غدت دراسته هذه من «كلاسيكيات» الحديث عن الشعر الجاهلى .

ويرى المترجم أن شك أبدع فيها لأن الجاهلية الألمانية قريب من قريب من الجاهلية العربية ، كما أن الفصول المتابعة عن الثقافة الأندلسية والأغراض الشعرية - غزلاً وحماسة وخمريات ووصفاً ومديحاً وهجاءً ورثاءً - أصبحت من مراجع الدرس الأندلسى ، وهى دراسات متقدمة زمنًا ؛ إذ إن المؤلف توفى سنة ١٨٩٤ لكنه أقام زمنًا فى الأندلس دارسًا ومتأملًا ، ولعل كلمته الذائعة تفسر هذا الاهتمام والتعاطف مع تلك الحضارة الآفلة : «من لم يقض أبداً أصيل يوم ربيعى فى جنة العريف لا يحق له أن يقول إنه رأى الكون فى عظمتة كاملة» .

بهذه الروح «الإنسانية» تحدث شك عن الأندلس شعراً وحضارةً وفناً ؛ لأن الجزء الثالث من هذا الكتاب عن الفن العربى فى إسبانيا وصقلية، قد ترجمه الدكتور مكى قبل أعوام خلت .

وهذا الكتاب محظوظ والدرس الأندلسى محظوظ كذلك ، حين أتيح لهذا الأدب والفن رجل فى قمة شك وهو شاعر فى لغته وقرب الشعر الأندلسى إلى الذوق الألمانى وتصرف أحياناً تصرفاً يسيراً ليكون أميناً أكثر مع الشعر ، راکناً إلى مقولاته المشهورة : إن الخيانة فى الترجمة تكون أحياناً من الحرص الشديد على الأمانة ، وحين أتيح أيضاً لهذا الكتاب أن يترجمه الكاتب الروائى والسياسى والدبلوماسى خوان باليرا (ت ١٩٠٥) ، وحين قبض له أن يكون واسع التأثير فى مدرسة الإستشراق الإسبانى ، وفى النهاية حين يترجمه إلى العربية ناقد كبير مثل د. مكى ، فيبدع فى الترجمة شأنه فى ذلك شأن ترجماته الأخرى أمانة مترجمة وبلاغة عربية ، تشرق فى ثوبها العربى إشراقها فى ثوبها الإسبانى ، وكم لذلى أن أتابع الترجمة على الأصل ، وأتلبث متسائلاً : كيف تكون ترجمة هذه الفقرة، فإذا بى أجد قرة عين فى الأمانة وجمال العبارة ولاغربة ؛ فالترجم شديد المراس، هائل التمكن من اللغتين .

الأدب الأندلسى من منظور إسباني

الباحث العربى فى الأدب الأندلسى مستطيع بغيره ، إذا لم يطلع على ثمرات القرائح الإسبانية ، التى تتناول هذا الأدب فكراً ولغة وتاريخاً وحضارة والمدرسة التقليدية التى تؤرخ للأدب العربى حسبها شذرات مما كتبه المؤرخون العرب القدامى عن الأندلس ؛ ولذلك تحيى دراستهم «ممتعة» بإحدى عينيها على حسب التعبير القديم للدلالة على «العوراء» .

وربما تسد الترجمات من الإسبانية بعض هذا الخلل لدى هذا الفريق من الباحثين . . لكن «الترجمان خوان» على مايقول المثل الإيطالى إلا إذا كان هذا الترجمان فى قامة أستاذ مشهود له بالأمانة ، والقدرة على حملها ، وفى ذرعه الإبانة بلغة عربية ، لائحس فيها عرج الترجمان التى ابتلينا بها فى هذا الزمان ولايترجم لك مديلاً ترجمته «بتصرف» كما يصنع خفاف المترجمين ، الذين ينقلون مايعرفون ويتركون ما لايدرونه - وهو عسير - بتصرفهم .

والأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ذو قامة باذخة فى الترجمة ، وحسبه أن يتصدى لتلك القمم الباذخة فى الفكر الأندلسى من المستشرقين وغيرهم ، وهم رجال فى قامة «خوليان ريبيرا» و «أورتيجا إى جازيت» و «غرسيه غومث» و «أسين بلاسيوس» و «سوليدال أو خيبرت» و «رامون ميتدت بيدال» وهم خلاصة الفكر الأندلسى تاريخاً وفكراً ولغة وحضارة وفلسفة ، ودراساتهم هى «كلاسيكيات» الدراسات الإسبانية عن الأندلس ، ولانعننى بهذا الوصف أنها قد تجاوزها الزمن ، بل نعننى بها أصول البحث عن الأندلس فى رجال ثقة ، يحدوهم الإنصاف فى أغلب كتابتهم ، يكتبونها فى حدود ماتسمح به الكنيسة وإن كانوا يتحايلون أحياناً فيخرجون عن أسرها . . لكن بقدر ، ولسنا مطالبهم بوجهة نظر عربية خالصة ترضى غرورنا ، وتدغدغ مشاعرنا بل حسبنا النصفة التى رائدها أن هذا التاريخ الأندلسى هو جزء مضى فى تاريخهم ، وإن كان أهله يتحدثون العربية ويدينون

بالإسلام ، وحسبك أن بعضهم جعل ابن حزم إسبانياً خالصاً ، ولم يكن مثل هذا البحث مسموحاً به إلا بعد زوال غاشية التعصب .

وهذا الكتاب الذى ترجمه الدكتور مكى بمثل هذه الروعة من البيان العالى ، إنما هو فى مجمله بحوث عميقة فى مجال الأدب المقارن نظرياً وتطبيقياً ومحاولة جادة وحيدة لمعرفة الوسائط ، وهو أغنية لهذه الثقافة العربية الأندلسية التى تجاوزت الحدود اللغوية لتؤثر تأثيراً هائلاً فى الفكر الأوروبى فلسفياً وصوفياً ولغة وعرضاً كافياً لبيان هذا الأثر العظيم ، وهى : الأصول العربية لفلسفة راييموندو لوليو ، وإسبانيا تنقل العلم العربى إلى الغرب ، وابن حزم قمة إسبانية ، والشعر الأندلسى وتأثيره فى الشعر الأوروبى .. إلخ .

لذا كنت أود أن يكون عنوان الكتاب «الفكر الأندلسى من منظور إسباني دراسة فى المصادر والتأثيرات» .. لكن العنوان جاء متواضعاً عن المحتوى إلا إذا كان الأدب هو الأخذ من كل شئ بطرف .. وحسبنا هذه السطور التى تأخذ بطرف واحد من هذا الكتاب القيم تاليفاً وترجمة وتعليقاً ، وأن تكون تحية عرفان لرجل زاهد ، عاكف على العلم ، وهو من قمم المدرسة الأندلسية Gran Espanista فى العالم العربى على الإطلاق .